دراسة شعر اسماعيل صبرى

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

(١)

حفزنى إلى هذا البحث أمران :

عناية رجال الأدب بوزارة المعارف بدراسة ديوان إسماعيل صبرى دراسة مستفيضة لتقريره فى مسابقتين متعاقبتين: مسابقة التدريس فى المدارس الثانوية، ومسابقة السنة التوجيهية، ولأجعل منه باكورة لدراسة شعراء العصر الحاضر دراسة مسهبة ، أصل بها بين أفكارهم وأغراضهم، وأزن فيها مقاديرهم من تراثهم الشعرى ، دون أن أتأثر بمنازلهم فى المجتمع المصرى بل العربى ، فكثير من الأدباء حتى الأجلاء منهم يصدر فى أحكامه عن رنين الأصوات ، وصخب الإمعات ، ولعل له عذرا وأنت تلوم .

— ١ —

شاعرية إسماعيل صبرى

إسماعيل صبرى شاعر مطبوع ألهم هذا الفن إلهاما ، فنظم الشعر ولما يعد سن الطفولة فى عصر جمدت فيه القرائح ، وخمدت العواطف ، وركدت سوق العلم لاستشراء الأمية فى البلاد، رغم مجاهدة محمد على وأحفاده ، وإذا

كان عصر إسماعيل عصر اليقظة بعد السبات ، فإنه لا يمكن أن يكون عصر تبريز فى الفنون، أو تحليق فى سماء الآداب ، لقلة الموارد ، وللرغبة فى إنضاج الأذهان لا إحياء العواطف ، وبعث العقول لا الشعور ، على أن العصر الذى يخمد فيه العقل لا تشتعل فيه العاطفة ؛ فإذا ظهر شاعر فى هذا الأفق الملبد بالجهل ، المغشى بركامه كان شاعر الطبيعة لا البيئة ، ونتاج العبقرية لا المعرفة ولو لم يتح له من يعلمه القراءة ، ويأخذه بالآداب ، لما نقص ذلك من شاعريته شيئا ، ولكان شاعرا بشعوره المتدفق ، ومصوراً بخياله المحلق ، بل لكان شاعرا بكل حاسة ، من حواسه لأن جوانحه تحمل طبيعة الشعر ، وإن جهل أوزانه وبحوره ورويه وقوافيه ، وعجز عن إبراز أفكاره ومعانيه .

كذلك كان إسماعيل صبرى الشاعر منذ نشوئه فقد عالج الشعر فى ذلك العهد السحيق فى الجهالة ، البعيد فى الأمية ، ولو أننا وازنا بينه ولما يزل يافعا - وبين سيد شعراء عصره « محمود صفوت الساعاتى » الذى يقول عنه المرحوم « السيد مصطفى لطفى المنفلوطى » فى مقدمة ديوانه « وقف الشعر قرونا عدة وقفة لا يتزحزح عنها ولا يتحلحل حتى أنزل الله إليه من ملائكة البيان رسلا فى هذا العهد الأخير أخذوا بيده ونشروه من قبره ونفضوا عنه غباره ، وكان المرحوم محمود أفندى صفوت الساعاتى أحد أولئك الرسل الكرام » ثم يقول بعدئذ « أما درجته فى الشعر فنظرنا إليها أنها بالنسبة لدرجات الشعر من قبلها ببضعة قرون آية الآيات وبحموعة الحسنات ، ومن قرأ شعر الساعاتى وقابل بينه وبين شعر الأمة العربية فى عصره علم أن للرجل من الفضل ما لا يقل عن فضل كل مصلح جديد ومخترع مجيد » .

لو أننا وازنا بينهما لتبينا أننا لم نعد الحق والإنصاف إذا جعلناه نبعة صافية فى مهامه فيح . وزهرة فى بلاقع جرد ، وتلك أبيات لكليهما فى غرض

متقارب ، فى سنة واحدة ، وعمر الشاعرة فوق الثلاثين ، وسن صبرى حوالى الست عشرة سنة . . . .

قال الشاعرة مهنئا بمولود :

بشائر صديق رشيد بأحمدا ... توالت على الدنيا بمن طاب مولدا
سما كوكبا فى الأرض فابتهجت به ... وأصعده مولاه فيها وأسعدا
فقلت إلى العين التى هو نورها ... أرى البدر فى أعلى المنازل قد بدا
تتوج بالإقبال وهو بمهده ... وبالعز فى عهد العزيز تقلدا

وقال صبرى مهنئا بالعيد . ويبدأ بالغزل على سنة الشعراء القدامى :

سفرت فلاح لنا هلال سعود ... ونما الغرام بقلبى المعمود
وجلت على العشاق روض محاسن ... فسقى الحياء شقائق التوريد

ثم ينتقل إلى المدح فيقول بعد أبيات :

ليطيب لى فى حبها ذلى كما ... فى مدح « إسماعيل » لذ نشيدى
يقظ ، بجودة رأيه مصر زهت ... زهو الحلى على صدور الخود
وأمدها بمعارف وعوارف ... ولطائف جلت عن « التعديد »

إن نظرة عابرة تمكن من إدراك الفرق بين النظمين ، وإن كان كلاهما دون المستوى الذى يجعله حقيقا بهذه التسمية ، ولكننا نقيس كلا منهما على الآخر ، وما أشبه النظم الأول بأخلاط من الحصى والحجر لا التئام بينها ، رصفها بناء لادراية له بصناعة ولا علم له بفن ، فجاء بناء متداعيا . وإذا لم يكن قوله فى مطلعه « بشائر صديق رشيد بأحمدا » غثا سخيفا فما الغثاثة والسخافة إذاً ؟ لكأن القارىء حين يقرأ الأبيات يصعد فى السماء ، أو يحفر فى يوم قائظ عن عين فى الصحراء ، ومن من رجال النحو يستسيغ قوله : « فقلت إلى العين » أو يرضى « بالعز تقلد »

وإذا نظرنا النظرة عينها فى شعر صبرى ألفيناه حاول موفقة وتقليدا مرضيا. وإليك هذا التخلص الطريف من الغزل إلى المدح ، ومراعاة النظير والجناس وغيرهما من أنواع البديع التى كانت آية البلاغة فى عصره . ولا يفوتنا أن ننبه على ذلك الخطأ الذى وقع فيه باستخدام كلمة التعديد بمعناها العامى ، إذ المعنى اللغوى لها هو إعداد العدة وأخذ الأهبة للقتال

تلك الطبيعة الشاعرة بدت فى يفعه نفاذة إلى الدقائق، مولعة بالتقليد واقفة عن التجديد ، كلفة بما كلف به أسلاف الشاعر من الولوع بأنواع كثيرة من البديع: كالجناس، والطباق، والتورية، ومراعاة النظير، واستخدام بعض الألفاظ الاصطلاحية فى علم من العلوم ، وهذه أمثلة لجميع ذلك استخلصناها من قصيدة واحدة ليكون الدليل أقوم :

من الجناس : وأمدها بمعارف وعوارف ولطائف . . .

من الطباق والجناس أيضا :

واستأنفى موصول عائد أنسنا فالقرب عيدى والبعاد وعيدى

من التورية :

وإلى متى ذا الصد عن مضنى الهوى عودى ليورق بالتواصل عودى

من مراعاة النظير :

قسما بنور جبينها وبخالها وسواد شعر واحمرار خدود
وبقوس حاجبها وسهم لحاظها وبخصرها وقوامها والجيد

من استخدام المصطلحات العلمية :

هو قطب دائرة المعالى والذى قد زاد عقد الرأى بالتسديد

تلك أمثلة لبعض ما كان يستخدمه متكلفا من أنواع البديع ، وذلك لأنه لا يجد معينا صافيا ينهل منه ، ولا منبعا رائقا يروى ظمأه الشعرى به ، إذ لم تكن الطباعة مذللة ، ولا دواوين الشعر ، وكتب الأدب موفورة ،

وإذ سفرت الطباعة عن محاسنها أكب عليها حافظا مستوعبا ، ثم محصا محققا ، فتحول حاله ، فإذا هو ينتزع نفسه من التفكير انتزاعا ، ويستخلص فكره مما كان يرسف فيه من أغلال استخلاصا لا رفق فيه ولا هوادة ، ولا تأنى ولا اتئاد ، فها هو ذا بعد أن كان يطيل القصائد شأن المبتدئين من المتأدبين ؛ لأنهم يرون الإجادة فى الإكثار ، ويزعمون الروعة فى الطوال لا فى القصار فحسب أحدهم أن يقول إنه نظم قصيدة عدة أبياتها كذا أما كم الجميل فيها ؟ فذلك مالم يكن أحدهم ليعيره اهتماما ؛ لخمود الأذهان عن النقد ، وعجزها عن التمييز بين الجوهر والصدف ، ولم يكن ينشد الشعر إلا فى غرض واحد هو المدح أو مايتصل به ، فلما سافر إلى أوربة عاد عالما أن قيمة الشعر فى جودته لا فى كثرته ، وأن بيتا واحدا قد يزن ديوانا كاملا كاللؤلؤة الفريدة تقوم بقناطير من الصدف ، وأن الكلف بالبديع يفقد الشعر روعة الشعور ، فإذا شعره بعدئذ مقطعات يشيع فيها الحسن ويشع منها الفن .

ولنبين أنه تحول مرة واحدة ، وطفر إلى الجمال طفرة قوية نعرض أبياتا متحدة الغرض يفرق الزمن بينها أقل من عقدين من السنين ، وهى فى حياة الأدب قصيدة ؛ لنعرف كيف أثرت فيه الثقافة ، وكيف كان استعداده الشعرى فطريا .

قال يهنىء الخديو إسماعيل بعيد الفطر سنة ١٨٧٤ م وكان لا يزال طالبا :

تهنأ بعيد الفطر يابدر قطره ... وعش مثل ماترضى وبدرك سامى
فذا ملك الأيام وافاك زائرا ... وأضحى مطيعاً فهو مثل غلام
ترق على هام الكواكب رفعة ... وفز بالثنا مادام سيبك (هامى) ؟
لئن قدم التاريخ قبلك من مضوا ... فقد حزت بالتأخير خير مقام

وقال مهنئا الخديو عباس بعيد الفطر كذلك سنة ١٨٩٣ م :

ياصاحب النيل الذى جرت به ... مصر على البلدان ذيلا أخضرا

حققت آمال البـــلاد وجزتها شأوا وماجزت الشباب الأنضرا
رامتـك شبلا كى تعز عرينها فأبيت إلا أن تكون غضنفرا

وفيها يقول :

بشرى فشهر الصوم أقبل باسما يهدى إليك من السلام الأعطرا
ويثيبك الأجر المضاعف راحلا إذ كنت أفضل من يثاب وأجدرا
شهر - كما زنت الإمارة ناشرا فينا لواء العدل - زان الأشهرا
لله در ندا كما فلقد جرت أيامه أجرا وكفك أبحرا

إن الفرق بين النظمين لواضح ، ولو عرضت الأبيات على ناقد بصير لايعرف قائلها مااستطاع أى مدره أن يقنعه أنها لشاعر واحد ، فالأولى واهية النسيج مهلهلة الرصف ، منفرطة العقد ، فما ذلك التركيب المجموع من أمثال « وعش مثل ماترضى » و« وأضحى مطيعا فهو مثل غلام » و « مادام سيبك هامى » ؟ ومن من النحاة يجيز ذلك الخطأ ؟

إن هذا الشعر يدل على مقدار ما أوتيه شبان ذلك الجيل من ثقافة ، فإذا ماتقدم بالشاعر الزمن حقبة سمعت جزل اللفظ فى رصين المعنى فى قوى الأسلوب ، فكأنك حين تقرأ هذه القصيدة التى منها الأبيات الأخيرة تقرأ البحترى فى قصيدته التى يهنىء بها المتوكل لعيد الفطر وأولها :

أخنى هوى لك فى الضلوع وأظهر وألام فى كمد عليك وأعذر
وأراك خنت على الهوى من لم يخن عهد الهوى وهجرت من لايهجر

وفيها يقول :

فانعم بيوم الفطر عينا إنه يوم أغر من الزمان مشهر
الله أعطاك المحبة فى الورى وحباك بالفضل الذى لاينكر

ألست تشعر أن القصيدتين تنبعان من منبع واحد وتصدران عن شاعر واحد ؟ وإلا فما الفرق البعيد بين قول البحترى « فانعم بيوم الفطر ... الخ »

وقول صبرى « شهركما زنت ... الخ » .

أنا لاأنكر أن صبرى نظر فى قصيدة البحترى ونهل من معانيها وجاراه فى أسلوبها ، وإن لم يتبعه فى رويها ، وكم من الشعراء يحاولون تقليد غيرهم فيعجزون .

تلك وقفة معتدلة عند شاعرية صبرى نستخلص منها مايأتى :

١ — أنه شاعر مطبوع رغم ضعف شعره الذى نظمه فى فجر حياته؛ لأن سبب ذلك الضعف ضعف الثقافة ، وحداثة سنه .

٢ — نهج فى شعره منهج الشعراء فى المماليك الذين كان قصارى جهدهم ملء شعرهم بالمحسنات البديعية مع سقم فى الأسلوب ، وفقر فى المعانى ، وخروج أحيانا على القواعد اللغوية والنحوية .

٣ — تحول عن هذا النهج تحولا ظاهرا بعد اتساع ثقافته بقراءته دواوين الشعراء ، وبنهله من الآداب الغربية .

٢

صبرى وشعراء عصره

لم يكن إسماعيل صبرى من صنائع الشعر ، فيستولى على مشاعره ، ويستأثر بعواطفه ، ولا ينفى ذلك أنه كان مطبوعا عليه ، وإنما كان يتخذ الشعر ملهاة له وسلوى فى أكثر أحايينه ، فكان ذلك من أسباب تخلفه عن زعماء عصره الثلاثة « البارودى وشوقى وحافظ » إذ العقول ينالها الخمود ، والأخيلة يصيبها الصدأ ، إذا لم تشب الأولى بالتروى والتفكير ، ولم تصقل الثانية بالتنور والتأمل ، وحين أوازن بين صبرى ولداته الثلاثة لا أزعم أنه مساويهم فى جميع أغراضهم الشعرية ، وإنما أريد أن أصل إلى أنه قد يجىء مجليا فى حلبتهم أحيانا ، وعلى كل فلما يجىء سكيتا ، وحسبه شاعرية أن يكون من حلبة هؤلاء كما أقصد إلى رسم نهج فى الموازنة الشعرية بعد أن عادت لها فى أفق الأدب

مكانتها الأولى ، ففيها الدليل على مقدار ما أصاب الموازن من الذوق الأدبي والقدرة على النقد المدعم بالحجة والبرهان .

وسأجعل الموازنة بين أبيات قليلة متحدة الغرض ؛ لأن المجال لا يتسع للموازنات المسهبة ، على أن الشاعر قد ينم على شاعريته البيت الفرد كما ينم الأريج على لون الورد .

البارودى وصبرى :

نبدأ بالموازنة بينهما ؛ لتقاربهما فى العهد . فالبارودى يسبق صبرى ، ولدا ووفاة بنحو عقدين ، والغرض الذى تخيرته للموازنة بينهما الغزل ؛ لأن الحضارة التى نهل منها صبرى وعل جعلت الغزل أبرز أغراضه .

قال البارودى :

علمتنى الذل وكنت امرأ ... أفعل ما شئت ولا أتقى
فارحم فؤاداً أنت أبليته ... ومقلة لولاك لم تأرق
لم أدر حتام أقاسى الجوى ؟ ... ياويح قلبى منك ماذا لقى ؟
وكيف لا أعشق من حسنه ... يدعو إلى الصبوة قلب التقى ؟
لك الجمال التم دون الورى ... وليس للبدر سوى رونق

وقال صبرى :

يامن أقام فؤادى مذ تملكه ... مابين نارين : من شوق ومن شجن
تفديك أعين قوم حولك ازدحمت ... عطشى إلى نهلة من وجهك الحسن
وتستعيذ إذا ألفتك مبتسما ... عن لؤلؤ بالنهى حرزا من الفتن
جردت كل مليح من ملاحته ... لم تتق الله فى ظبى ولا غصن
فاستبق للبدر بين الشهب رتبته ... تملكه فى أوجه عبداً بلا ثمن

خمسة أبيات لكل من الشاعرين ، الأولى مختارة من قصيدة ، والثانية مقطوعة بتمامها ، وفى القطعتين معان مشتركة وأخرى مفترقة ، وتجىء الموازنة

فى المعانى المشتركة بين روعة البيان وحسن الأداء ، ودقة التصوير ، ووضوح التصوير ، لأن أكثرها معان شائعة لافضل فيها لأحدهما وننظر فى المفترقة نظرة فاحصة لنتبين أى المعنيين أسمى فى هذا الموضع بذاته .

(١) تحدث كلا الشاعرين عن فؤاده ، فبعد أن أشعرنا البارودى بعزته التى لاتتقى شيئا طلب الرحمة بفؤاده ؛ إذ أبلاه الهوى ، وتمناها لمقلته التى أرقها الجوى ، وملك حبيب صبرى قلبه ، ولم يدعه معذب إساره فحسب ، وإنما أقامه بين نارين ليس فى إحداهما برد ولاسلام ، ومع كل هذا لم يسترحم مسترقه ، ولاشكا شوقه .

وليس شك فى أن معنى صبرى أدق تصورا؛لأن القلب متى بلى استراح فهو لايستأهل طلب الرحمة ، ورجاء الرحمة بالعين لأرقها رجاء تافه لايستسيغه العشاق ، كذلك تصوير صبرى أروع ؛ لأنه ملك فؤاده حبيبه ورضى بمكانه الذى وضعه فيه وهو نار الشوق والشجن ، وأين من قول صبرى :

تفديك أعين قوم حولك ازدحمت عطشى إلى نهلة من وجهك الحسن

قول البارودى :

فارحم فؤاداً أنت أبليته ومقـــلة لو شئت لم تأرق

إن أرق الحبيب الواله أدنى أسباب العشق. أما افتداء المحبوب بحدق العيون فدليل البعد عن القصد فى الوجد ، ولايغض من جمال المعنى أنه مأخوذ من قول أبى نواس :

فإذا بدا اقتادت محاسنه قسرا إليه أعنة الحـــدق

أو من قول أبى الحسن العقيلى :

كلما لاح وجهـــه بمكان كثرت زحمة العيون عليه

فإنه على فرض أخذه من أحدهما أو من كليهما تصرف فى المعنى حتى صيره خيرا من معناهما بافتداء العيون المحبوب .

(٢) شكا البارودى من الحب فقال:

لم أدر حتـــام أقاسى الجـوي ... ياويح قلبي منـك ! ماذا لقى ؟

وكانى به نسى:

شكوت فقالت كل هذا تبرما ... بحبى أراح الله قلبـك من حب

والحق أن سعادة المحب فى شقاوته. أما صبرى فلم يستبعد الغاية ولم يدع لقلبه بالمرحمة مرة بعد مرة، وإنما ذهب مذهبا عجبا له أحسن الوقع فى النفس؛ استعاذت عيناه حينما رأتا محبوبهما مبتسما عن مثل اللؤلؤ، والشكوى من أحدهما، ووصف الثنايا من الثانى من المعانى المفترقة بينهما.

(٣) ووصف البارودى محبوبه بأن جماله يفتن التقى، وهو معنى ورد فى أبيات صبرى فى صورة أخرى، والصورة التى تخيرها البارودى كثيرة التناول؛ أرسلها النابغة من سماء خياله الصافية من قرابة خمسة عشر قرنا، ولم يجىء الشعراء من بعده بخير منها قال:

لو أنها عرضت لأشمط راهب ... فى رأس مشرفة الذرا يتبتل

لرنا لبهجتها وحسن حديثها ... ولهمَّ من ناموسه يتنزل

ووصف صبرى محبوبه بحسن لم يبلغه مخلوق، فقد جرد كل الخلائق من مفاتنها وسلبها محاسنها، فله من الظبى الأغن قسط، ومن الغصن اللدن حظ، وله من البدر عبد رق، ودعاه أن يستبق للبدر بين الكواكب رتبته وحسبه منه أنه عبده الخاضع.

هذه نظرة مستقصية فى المعانى، أما الأسلوب وتخير الألفاظ، فإن أسلوب البارودى يذكرنا بعزة أبى فراس وقوة روحه، وينبىء أسلوب صبرى عن وداعة المحبين وذلة المغرمين، وهو أسلوب الغزلين.

أما النواحى البلاغية « وليس أحد من القارئين فى حاجة إلى تقصيها » — وأثرها فى الجمال لا ينكر — إذا ما جاءت بقدر فشعر البارودى بها أبرز وأظهر،

ولكنها لا ترجح كفة الميزان ، وإذاً فصبرى فارس الحلبة على رجل الحلبة .

صبرى وشوقى :

كان صبرى وشوقى صديقين لم تؤثر المنافسة - إن كانت - فيهما ، فأرسل شوقى إلى صبرى وهو فى منفاه سنة ١٩١٧م

ياسارى البرق يرمى عن جوانحنا بعد الهدوء ويهمى من مآقينا
ترقرق الماء فى عين السماء وما غاض الأسى فخضبنا الأرض باكينا

فأجابه صبرى بهذه الأبيات :

ياوامض البرق كم نبهت من شجن فى أضلع ذهلت عن دائها حينا
فالماء فى مقل والنار فى مهج قد حار بينهما أمر المحبينا
لولا تذكر أيام لنا سلفت مابات يبكى ومافى الأرض باكينا
يا آل ودى عودوا لاعدمتكم وشاهدوا ويحكم فعل النوى فينا
يا نسمة ضمخت أذيالها سحرا أزهار أندلس هبى بوادينا

نظرة قصيرة تقدر على الحكم العادل ، فشوقى بلغ غرضه كاملا فى بيتين ، بينما لم يشف صبرى غلته بأبياته الخمسة ، صور شوقى الجوى صورة سافرة الحسن بادية الجمال ، فخاطب البرق ساريا إذ الهدوء شامل والطبيعة ساكنة والذكريات ثائرة ، وتصوير السحاب فى عين السماء برقرقة الدمع فى مقلة الحزين تصوير أخاذ ، وإذا كان البكاء يشفى الغليل ، فإنه فى شاعرنا لم يغض أساه ، ولم يخفف جواه ، فخضب الأرض بدماء الجفون ، وسار صبرى على نهجه ، أو على نهج من اختاره شوقى هاديا لهما ، ابن زيدون إذ يقول:

يا سارى البرق غاد القصر واسق به من كان صرف الهوى والود يسقينا
واسأل هنالك هل عنى تذكرنا إلفا تذكره أمسى يعنينا . . . ؟

نادى صبرى البرق متأففاً ، لأنه أثار شجنه ، ونبه حزنه ، وجدير بمثله ألا يذهل عن داء القلب الذى مبعثه الحب ، وألا يطلب منه برءا ، ولم يجر البيت الثانى على أنه ممثل حاله – وإن أراد – بل أتى فيه بظاهرة من شئون المحبين ، وعلاقته بالبيت السابق واهية ولو جاء فى ترتيب الأبيات ثالثا لكان أحكم .

وجميل منه الأسى على أيام مضت وسويعات سلفت نال فيها أمانيه ، وغير الجميل منه أن يرجو عدم الذكرى حتى لا تفيض عبراته ولو قال :

كم من تذكر أيام لنا سلفت   جرت دماء غزار من مآقينا

لبلغ رجاء المحبين.

وفى البيت الرابع دعاء لآل وده بالعودة؛ لا لأن العودة تقر العيون العبرى ، وتطمئن النفوس الولهى ، بل ليشاهدوا ما فعلته النوى ، وهى أثرة ليست من خلق المولهين على أن تكرار الدعاء فى البيت الواحد يدل على وفاء فى الوفاء ، وفى البيت الخامس نادى نسمة السحر المضمخة بعبير الزهر وتمنى أن تهب بواديه ولا أكاد أجد اتصالاً بين هذا البيت فى وضعه الذى وضعه صبرى وبين البيت السابق له فخطاب النسمة أن تهب دون أن تمر على ديار المحبوب ثمن مبتور .

والآن أترك للقارئ الباحث حصر أدلة فضل بيتى شوقى ؟

عبد العظيم على قناوى